من علاقات التأثير والتأثر بين المغرب والمشرق

أحمد فارس الشدياق،وخير الدين التونسي

د. محمد الهادي المطوي

كثيرا ما سألت نفسي كلما طالعت كتاب (أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك) لماذا أهمل فيه مؤلفه الوزير المصلح خير الدين التونسي (1822 ؟ ـ 1889)[1] الرائد النهضوي أحمد فارس الشدياق (1801 ـ 1887)، ولم يعتبره من مصادره كما اعتبر غيره من معاصريه العرب والمسلمين مثل : أحمد الزرابي (ت : 1854) الذي كان من مبعوثي محمد علي باشا والي مصر إلى فرنسا في كتابه (قرة النفوس والعيون بسير ما توسّط من القرون) (ط. بولاق 1262 هـ)، وشيخ الاسلام أحمد عارف بك (1786 ـ 1859)، وابراهيم الرياحي (1766 ـ 1850)، ومحمد بيرم الأول (1718 ـ 1800) في كتابه (رسالة في السياسة الشرعية)، ورفاعة الطهطاوي (1801 ـ 1873) صاحب كتاب (تخليص الابريز في تلخيص باريز، ط. بولاق 1834)، خاصة ان الشدياق قد كانت له، في نفس الموضوع الذي عالجه أقوم المسالك إسهامات كثيرة في كتبه وجريدته (الجوائب) الذائعة الصيت (31 ماي 1861 ـ 5 مارس 1884)، وانه كان معروفا لدى خير الدين من رسائله إلى الوزير الأول التونسي مصطفى خزندار (1817ـ 1878)، ومن زياراته الثلاث إلى تونس : الأولى صيف 1841 وقتما تعطلت الدروس بمالطة حيث كان يدرس، والثانية أوائل سنة 1847 على الأرجح عقب مدحه الباي أحمد باشا بقصيدة عارض فيها كعب بن زهير في قصيدته المعروفة بالبردة، وذلك لما سمعه عن كرم الباي في زيارته إلى باريس خلال دسمبر 1846، فبعث اليه بسفينة تستقدمه إلى تونس مكافأة له. والثالثة، وهي التي وطدت العلاقة بين الرجلين، حدثت صيف 1857/1273 بلندن في لقاء حضره حسين باشا التونسي (ت : 1887)، وفيه انشده هذه القصيدة :

ليس النسيب وإن حلا من ديني إن جئت أمدح خيرَ الديـن
فخر الورى والدين والدنيا معا وثناء كل مصوّر من طين
لو كان في العُصْر الخوالى مثله ما استأنفوا في الوصف مدح العِين

(1) انظر عن خير الدين قائمة المراجع التي أوردها محمد محفوظ في كتابه : تراجم المؤلفين التونسيين الجزء الثاني ص : 271 ـ 279. ط : دار الغرب الاسلامي، بيروت 1982.

تلقى به نور الشمائل نورها ... يلقي عليك بلاغة التبيين
وافى ودهري داهريّ عابس ... يعيا عليّ ولاتَ حين مُعين
فرأيت من لألاء غرّته سنا ... بشر وبشرى للشجيّ المحزون
إن غاب عن ذا القطر مطْلع جَوْنه ... حتى تساوى جَوْنُه بالجون

فلنا بطلعته غنى فلطالما ... بزغت لنا منها شموس مزون
آليت من حرمان حرفتِيَ التي ... كسدت وما ساوت لقا عربون
إن القريض الآن ليس بصالح ... إلا لذمّ الحي والتأبين
لكن صفات الشهم خير الدين قد ... أبقت على ترك المديح يميني
لو لم يكن في الدهر الا فضله ... لوجدته بالحمد أيّ قمين
لله معدن تونس الخضراء كم ... ينمو به من جوهر مكنون
ولكم بدا منها همام أشرقت ... بلقائه الآفاق في تزيين[2]
من شاقه علم المواطن والملا ... فلينظرنه سويعة من حين
يجد إمرءا فردا حوى في صدره ... ما ليس في صحف وجمع فنون
سبحان من جمع المحاسن كلها ... في مفرد أمسى بغير قرين
حلم ورأي صائب ونزاهة ... في رفعة ومهابة مع لين
حوت الجزيرة منه بحرا زاخرا ... تجري المنى فيه بملء سفين
ما بال هذا الدرّ يُخشى كفّه ... ولقد تراها لجة التأمين
لكن بقدر النفع منها للورى ... أضرارها بلآلىء ورقين
يا فرحة الأيام عند إيابه ... وغياث كل مؤمّل مسكين
يا سيّد الأمراء يا من مدحه ... حق يقين ليس عن تخمين
نزّهت قدرك وهو أعلى مَحْتِدا ... عن أن يقابل بالكلام الدّون
إني بمدحك مادح نفسي وإن ... ألكُ في القريض اليوم غير مبين
إن الصروف عدتْك حالتي وإن ... علقت بمجمع خاطري وتبييني
والشعر ليس له ملاك حيثما ... كان الدخان لنا لِمُاك عيون[3]
أوحشت تونس برهة حسدت بها ... باريسُ ضرّتها بعين ظنين[4]
مع أن رفدك لا يغيب مباءة ... عنها تغيب وإن تكن في الصين
فاسلم على طول الزمان مظفرا ... ومهنئا بالعز والتمكين[5]

(2) بلقائه : في الأصل بقلايه

(3) اللماك (بضم اللام وكسرها) : الجلاء يكحل به العين.

(4) ظنين : هكذا بالاصل. ولعلها ضنين.

(5) كنش عدد 16511، دار الكتب الوطنية بتونس، ص : 167 أ ـ ب. وقد نشرت القصيدة كاملة وكذلك مقدمتها الآتي ذكرها لأنه لم يسبق نشرهما من قبل.

وكان لهذه القصيدة صداها الطيب في نفس خير الدين، فاتفق مع الشدياق على أن يلتحق بتونس ليشرف على إصدار جريدة تعبر عن الأفكار النهضوية التي كانت تخامرهما. وقد صوّر الشدياق ما تمخّض عنه هذا اللقاء في وثيقة نادرة لم يشر إليها إلا عماد الصلح في كتابه عن الشدياق[6] وقد رأيت نشرها هنا ضروريا لما تلقي من أضواء على حياة الشدياق وتأسيس المطبعة التونسية وجريدة الرائد التونسي. والملاحظ أن الشدياق ساقها على لسان غيره ـ هو عند الصلح انطونيوس الاميوني ـ وقدم بها جملة من القصائد في مدح عدد من المسؤولين التونسيين الذين سيتصل بهم عند وصوله إلى تونس منها القصيدة السابقة في خير الدين.والوثيقة المشار إليها هي : «ومما وجد بخط الأديب النصراني فارس الشدياق ما نصه : الحمد لله ناظم هذه القصائد الآتية الخواجة فارس الشدياق، وكان سبب قدومه إلى مدينة لندرة من جزيرة مالطة هو قضاء خدمة مهمة لأقدم جمعيات الانكليز أعني جمعية انتشار المعارف المسيحية. وتلك الخدمة هي ترجمة التوراة والانجيل : الكتاب المقدس. فلما فرغ من هذا العمل وكان قد استعفى من خدمته بمالطة اضطرّ إلى أن ينتظم في سلك معاش كتاب أبدال القيان والبضّاع الا أن ذلك لم يكن مما تميل إليه نفسه ولم يجده حطاما. فخطر بباله أن يؤلف كتابا مفيدا لنفسه ولغيره تخفيفا لكربه من مكاتيب التجار التي هي كالحلقة المفرغة أولها وآخرها سواء. فمن ثم شرع في تأليف رحلة جامعة أودعها ذكر ما رأى في بلاد الانكليز وغيرها وما هم عليه من الأحوال والأطوار والأشغال والصنائع، وجعل ذلك على سبيل الموازنة بينهم وبين الفرنساوية. ثم استطرد إلى ذكر المخترعات وأصل من استحدثها وإلى عدد كل ما تكفي معرفته من الناس وغيرهم وإلى فوائد أخرى جمة استخرجها من عدة كتب يعتمد عليها. وما كاد يتم هذا الكتاب الا وقدّر الله تعالى قدوم السيد الجليل المولى النبيل أمير الأمراء الكرام السيد خير الدين وزير البحر في مملكة تونس فبادر إلى تهنئته بالوصول، وأنشده أولى هذه القصائد الآتي ذكرها فوقعت لديه موقعا حسنا وتكرم عليه بوظيفة حسنة عنده في تونس وهي مباشرة جرنال عمومي يشتمل على أخبار داخلية وخارجية معربة من اللغات الافرنجية وغير معربة. فإن المشار إليه عازم على إنشاء مطبعة عربية في ذلك الطرف لاستشهار الكتب والأخبار المفيدة. والمأمول أن أول كتاب يطبع في المطبعة يكون الكتاب المذكور أعلاه، وفي عزمه إلحاق تلك المملكة بالممالك الافرنجية في جميع ما يتهيأ من أسباب التمدّن. ولا شك أن فوائد ذلك تتصل بغيرها من البلاد ولا سيما استشهار الأخبار الشاملة للأمور المتجرية وغيرها. وان الخواجة فارس المذكور يحصل بهمة الأمير المشار اليه على وظيفة حسنة ووجاهة مضبوطة تنسيه ما كابده من تلك المراسلات التي تقدم ذكرها. وحيث اني علمت أن الأمير المشار اليه قد استحسن القصيدة التي مدح بها مع كونها بنت ليلة وأجاز الناظم عليها جائزة وافرة رأيت هنا من الصواب أن أشهرها مع غيرها لما سيقدمه الخواجة فارس المذكور حين وصوله إلى تونس إلى جناب واليها المعظم وإلى بعض رجال دولته ولكن لم يتم منها الا ما سيأتي ذكره. حرر في لندن 8 حزيران 1857.[7].

(6) الصلح، عماد : احمد فارس الشدياق : 83.

(7) نفس الكنش السابق : 166 أ ـ ب.

غير أن موانع قد حالت بين هذه الوظيفة والشدياق الذي لا شك في أن تونس قد خسرت الكثير بصرفه عن مباشرة الجريدة، بل وبارتحاله عنها إلى الأستانة، ولعل تلك الموانع تعود إلى عصبية مزاج الشدياق، وخلافاته مع المسؤولين التونسيين في ما يتعلق ببرنامج الجريدة نفسها، وإلى رغبة الحكومة التونسية بناء على نصائح بعض القناصل الأجانب في أن يكون الرائد التونسي بعيدا عن الخلافات الدولية التي قد تعكر صفو العلاقات التونسية مع الدول الأجنبية، وهي نصيحة لم تكن متوفرة في الشدياق كما دلت التجربة لما أصدر الجوائب بالاستانة، وقد أشار الشدياق في ردّه على سليمان الحرائري (1824 ـ 1875) محرر برجيس باريس إلى هذا الاتجاه الذي بني عليه الرائد فقال : «انه غير ذي ضلع مع إحدى الدول»[8]، وعدّ ذلك من خلاله.

ويسافر الشدياق إلى الاستانة أواخر سنة 1859 على الأرجح بعد إقامة بتونس تربو على السنتين، وهناك يصدر جريدة الجوائب التي ستصبح الصحيفة الأولى في العالميْن العربي والاسلامي، وستكون للتونسيين مرجعا ثقافيا أساسيا، وللرائد التونسي على الخصوص مصدرا صحفيا حتى لا يكاد عدد منه يخلو من النقل عن الجوائب، بل إننا نجد احيانا العدد الواحد كله منقولا عنها.

ويظل الشدياق ـ بالرغم من حرمانه من وظيفة في تونس ـ على علاقات جيدة مع خير الدين، فنجده يراسله بكتابه كشف المخبإ في فنون أوروبا لنشره بتونس بناء على الاتفاق السابق بينهما، ويستجيب خير الدين إلى ذلك ويبعث إليه برسالة نشر منها في الجوائب مقتطفات نقلها عنها الرائد التونسي ونوردها فيما يلي لنتبين أثر رحلتيه في نفس خير الدين وصديقه حسين باشا التونسي :

«قد هداني الجد الجديد والطالع الرشيد إلى أن خدمت حضرة ذي الكرم العتيد والفضل المديد السيد خير الدين أمير الأمراء بمحروسة تونس الخضراء بنسخة من رحلتي التي سميتها كشف المخبا عن فنون أوروبا فشرفني في هذه الأيام بكتاب كريم يقول فيه : أما بعد فإني قد وجهت عنايتي برهة إلى مطالعة الرحلة العجيبة التي انتصبت للمسترشد إلى مكارم الأخلاق دالة ومجيبة. ونزهت ناظر الفكر في رياضها، واستعذبت الوِرْد من سلسبيل حياضها فوجدتها شاهدة صاحبها بما لا نجهله من التقدم في العرفان، وبأنه كاسمه من فرسان ميادين البيان، حيث أعربت عما يمدح أو يذم من عوائد البلدان والأخلاق المختلفة باخلاق طبائع الانسان وأفصحت عن تقدم الافرنج في التمدن والتهذيب، ووصلهم بحسن الترتيب، وإدمان التدريب إلى غاية في الاختراع يحتار في تصور أسبابها اللبيب، إلى أن قال : (واني قد دفعتها الآن إلى أمير الأمراء السيد حسين ليطالعها ويطبعها ان شاء الله بالمطبعة التونسية، ونرغب أن تقبلوا منا خَاتَمًا على وجه التذكرة يصلكم من مرسيلية.. الخ)، فشملني السرور من ثلاثة

(8) الجوائب، العدد 113، 16 سبتمبر 1863.

أوجه : أحدها كون الرحلة قد وقعت لدى جنابه الكريم موقع الاستحسان، والثاني : أمره بطبعها لتكون فوائدها مشهورة لدى كل قاص ودان، والثالث : إرسال الخاتم من ألماس الفائق الشان. فحق عليّ أن أقابل هذه الأيادي الثلاث. بثناء وشكر تخلصه الحواس الخمس من دون انتقاص ولا انتكاث، فمثله من أعطى ومثلي من شكر، وكل حمد في جانب منه غير مستكثر، على أنها بالنسبة إلى مكارمه إن هي الا جرعة من غمر وموجة من بحر، وقلت أمدحه فيما أجبت به عن ذلك الرقيم وإن كان مدحي دون علاء مقامه الكريم :

قلت والخاتـم يا مولاي قد جاء لماعـا كنجـم طلعـا
ذاك فضل عنك يروي قائلا : أنت خير الدين والدنيا معا[9]

ويأخذ الرائد التونسي في طبع رحلة الشدياق لكنه يبدأ بالواسطة في أحوال مالطة ليكون وكشف المخبا في كتاب واحد، وذلك بداية من عدد 11 أكتوبر 1863، لكنه يتوقف عن ذلك مع عدد 22 أفريل 1866 أي إلى الصفحة 248 من الطبعة الثانية للكتاب التي تمت بالاستانة في مطبعة الجوائب سنة 1881/1299. وكان قد قدم للكتابين بمقدمة واحدة ضمّنها ما نشره قبل بالجوائب، كما أضاف إليها قصيدة في مدح خير الدين مطلعها :

اذا كان خير الدين عني راضيا فما ضائري أن أغضب الدهر والوسعا

الّا أنه حذف هذا القسم وهذه القصيدة من الطبعة الثانية فيما بعد[10] ربما لأن خير الدين الذي كان في ما بين 1878 ـ 1879 صدرا أعظم بالاستانة كان قد أمر بتعطيل الجوائب مدة ستة أشهر لرفضها نشر مقال يطعن في سياسة الخديوي اسماعيل (1863 ـ 1879) الانفصالية عن الخلافة العثمانية بعد أن عزله خير الدين من على عرش مصر، ولنشرها للشدياق بدل ذلك مقالا بعنوان (سفاهة الحقيقة)[11].

ويعرف المطلعون على حياة خير الدين أنه قد قام برحلات سفارية عديدة إلى أوروبا والاستانة خاصة في ما بين 1863 و1867 بعد استقالته من وزارة البحر سنة 1862 احتجاجا على مبدإ الاقتراض من أوروبا، فتمكن بتلك الرحلات من الاطلاع على التمدن الأوروبي وخفاياه، كما يعرف أولئك أيضا أنه أصدر سنة 1867 كتابه الشهير (أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك) بعد أن كان قد سبقه إلى الوجود كتاب الطهطاوي عن رحلته إلى باريس، ورحلتا الشدياق إلى مالطة وأوروبا، والصورة الثانية لهما في كتاب (الساق على الساق فيما هو

---

(9) الرائد التونسي، السنة 4، العدد 14، 15 ربيع الثاني 1280.

(10) نشر الشدياق هذه القصيدة بعد ذلك في كتابه (كنز الرغائب في منتخبات الجوائب) : 184/3.

(11) طرازي، تاريخ الصحافة العربية : 61/1 والصلح، عماد : أحمد فارس الشدياق : 130.

الفارياق) الذي نشر قبلهما بباريس سنة 1855، كما أن صدوره قد جاء في وقت كانت فيه الجوائب ملء العين والأذن بما تنشره من تحقيقات ومقالات عن التمدن الأوروبي، والتنظيمات، ومجالس الشورى، والحكم المستبد، وغير ذلك من الموضوعات التي كانت تجد صدًى في محاورات المجالس، وأعمدة الصحف، وصفحات الكتب...

ويتصفح القارىء مقدمة الكتاب ـ وهي أهم شيء فيه ـ فيجدها مشحونة بمصادر عدة وشواهد كثيرة نقلها عن مؤلفين عرب ومسلمين وأجانب، لكنه ـ كما قلت أول هذا الحديث ـ لا يجد ذكرا للشدياق، ولا لكتاب واحد من كتبه الكثيرة، ولا لجريدته التي كانت توالي الصدور ـ عند ظهور كتاب أقوم المسالك ـ منذ ست سنين.

وكنت كلما مرّت الأيام وأزداد تعرفا بالشدياق أشعر بهذا السؤال يلح علي إلحاحا : لماذا لم يذكر خير الدين الشدياق في مقدمته ؟ وهل يعقل الّا يجد عنده ما يستحقّ الذكر أو حتى الاشارة إلى جهوده النهضوية العديدة وريادته في هذا الميدان كما فعل ذلك مع الطهطاوي وغيره مثلا ؟...

ولقد كانت هذه الحيرة ملازمة لي إلى أن وقعت على مقالة مطوّلة للشدياق بلغت صفحة ونصفا من جريدة الجوائب كتبها تعليقا على أحداث ثورة ابن غذاهم بالعدد 146 وتهجم فيها على محمّد الصادق باي حتى اتهمه بالنفاق والرياء لما تظاهر بمساندة عهد الأمان عند ولايته عرش تونس بينما وجده يأمر بتعطيله بعد الثورة والعودة إلى سالف عهد آبائه من مباشرة السلطة القضائية بأنفسهم فقال : «ليت شعري هل ما أشرنا اليه سابقا من حبّ والي الايالة التونسية لقوانين الحرية كان حقيقة منه أو كان يتظاهر به رياء وسمعة اذ الأقوال في ذلك كثيرة وربما كانت أدلة القائل بالوجه الثاني أروج باعتبار ما أظهره الوالي المشار إليه في هذه المدة من الرغبة في الرجوع إلى السيرة القديمة والاستبداد بالأحكام اقتداء برأي من لم ير استمرار العمل بالقوانين من رجال حكومته»(12).

وأنا أطالع هذه المقالة سرعان ما قفزت إلى ذاكرتي آراء وكلمات كنت أشعر بأني مررت بها من قبل في مقدمة (أقوم المسالك...) فعدت إليه استقصي الخبر اليقين وأنا أمنّي النفس بأن يكون ما توهمت ليس الا تشابها عارضا فقد كان الرجلان متعاصرين ويحملان نفس الهموم النهضوية... ولكن تبين لي أن ما كان ظنا انما هو عين اليقين، وها أنا أثبت للقارىء ما وجدت عساه يتولى الحكم في ذلك بنفسه :

1 ـ نص الشديـــــاق :

«وأما تعطيل فصل النوازل الذي تشكو منه الأهالي فلأسباب كان يتيسر إزالتها بحسن الالتفات : منها تقصير البعض من رجال الحكومة في اتمام مأمورياتهم حيث رأوا ان العمل

(12) الجوائب، العدد 146 ـ 26 جويلية 1864.

بالقوانين في الايالة ينقص من فوائدهم الشخصية ولم يجدوا طريقا للخدش في لياقة القوانين بالأهالي فتوصلوا بتعطيل موجبات الفصل إلى تنفير الأهالي ليؤول الأمر إلى إيطاليا. ومنها أن إعطاء النوازل حقها من التأمل حتى يتضح للحاكم وجه الحكم مما يستدعي في نفسه فسحة ضرورية لفهم النوازل على الوجه المطلوب، ولا يخفي أن تلك الفسحة المتفاوتة بتفاوت النوازل في التشعّب من لوازم البشرية في كل من طرفي الحاكم والمحكوم عليه، اذ الحكم سواء كان مبينا على قواعد الشريعة أو على مقاييس العقل والعادة لا يكون حكما معتدّا به الا اذا كان مسبوقا بأخذ المحكوم عليه فسحة للمدافعة حتى يعجز ويأخذ الحاكم فسحة للنظر حتى يتضح عنده وجه الحكم، فالحاكم متى اختصر من الفسحة الأولى والثانية فقد ظلم المحكوم عليه وظلم نفسه، فاذا كانت عادة الفسحة الطبيعية مما تعاضد على لزومها العقل والشرع فلا سبب إذا لتشكّي أهل هذه الأيالة منها الا ما تعوّدوه من حكامهم السياسية (كذا) الذين كثيرا ما ينشر لديهم من النوازل ما لو نشر لدى القاضي إياس لَاحْتار في تصوّره عدة أيام، وهؤلاء الحكام يبادرون لفصلها في عدة دقائق بحكم قاطع لا مخلص للمحكوم عليه منه، ثم انا لا ننكر أن يقع في احكام تلك المجالس تطويل زائد على الفسحة اللازمة لكن يقبل اعتذارهم عن ذلك بما تقدّم من تعطيل أسباب الفصل من تلقاء الحكومة مع أن القوانين لم تزل غضّة ولم تتمرّن الحكام عليها».

2 ـ نص خير الدين الذي كتبه في الشبهة الثالثة من شُبَهِ المعترضين على التنظيمات :

«وأما الشبهة الثالثة فجوابها أن التطويل الذي يمكن عروضه في فصل النوازل يرجع إلى قسمين لأنه إما ان يكون ناشئا عن صعوبة تصور النازلة وتعيين ما ينطبق عليها من النصوص المتجاذبة لها أو يكون ناشئا عن قصور المتوظفين أو تقصيرهم.

أ) أما القسم الأول فلا يتشكّى منه الا الجاهل أو المتجاهل، وذلك ان اعطاء النوازل حقها من التأمل حتى يتضح عند الحاكم وجه الحكم، يستدعي فسحة ضرورية لفهمها على الوجه المطلوب، وتلك الفسحة المتفاوتة بتفاوت النوازل في التشعّب من لوازم البشرية، في حق كل من الحاكم والمحكوم عليه، اذ الحكم سواء كان مبنيا على القواعد الشرعية أو القوانين العقلية لا يكون حكما معتدّا به الا اذا كان مسبوقا بأخذ المحكوم عليه مهلة لتحرير حججه التي يدافع بها عن نفسه، وأخذ الحاكم مثلها لامعان النظر فيها، وتعيين ما ينطبق من الأصول عليها، فالحاكم اذا نقص من احدى المهلتين شيئا فقد ظلم المحكوم عليه ونفسه.

وحيث كان التطويل المشار اليه طبيعيا للنوازل ما لو نشر لدى أحذق القضاة لاحتاج في تصوره إلى عدة أيام، فيبادرون إلى فصلها في عدة دقائق بحكم لا يتعقّب، بل لو فرض الترخيص منهم في تعقبه لما أمكن ذلك، حيث لم يكن الحكم مسجلا بظهير لأن التعقب يستدعي استناد الحكم المتعقب إلى شيء من الأدلة يمكن اطلاع المتعقب عليه، بحيث يجد محلا للتخطئة في تنزيل الحكم أو نحو ذلك، اذا كان الحكم مسجلا، وما يصدر من هؤلاء حكم شفاهي غير معلل باستناده إلى شيء في الخارج، فهو لا يخلو : اما أن يكون أمرا اتفاقيا

بحسب ما يسنح لاحدهم في ذلك الوقت، ولذلك ترى كثيرا من النوازل متفقة في المعنى وأحكامها مختلفة، أو مستندا إلى دليل لا يتجاوز صدر ذلك الحاكم، فلا يمكن الاطلاع عليه، وفي الحالتين لا يمكن التعقب.

ثم انا لا ننكر أن يقع في ابتداء العمل بالتنظيمات شيء من التطويل زائد على المقدار الطبيعي ناشيء عن عدم التعود بها والتمرن عليها»[13].

ان المقارنة بين النصين تدفعنا إلى القول بأن خير الدين أو من أعانه على التحرير قد أخذ نص الشدياق من جريدة الجوائب ونزّله في أقوم المسالك تنزيلا محدثا فيه تغييرا يعتمد على التقديم والتأخير، واستعمال المرادف للكلمة، والحذف، والاختصار والتوسعة وغير ذلك من طرق التصرف كما هو واضح لدى القاريء.

فهل يبقى بعد هذا مجال للشك في أن النص السابق هو للشدياق، وانه في جملته دخيل على أقوم المسالك، وأخذ من الجوائب، وهذا دليل على أن خير الدين وزملاءه من النهضويين التونسيين كانوا يطالعون الجوائب باستمرار وشغف لاتجاهها السياسي العثماني الذي إليه يتعصبون، ولما كانوا يجدون فيها من الزاد الثقافي الذي إليه يحتاجون...

وإذا أردنا دليلا آخر على هذا الاعجاب والنهل من الجوائب نذكر ما ورد في الرائد التونسي من رسالة كتبها مديره حسين باشا التونسي إلى منصور كرليتي الذي نافس الشدياق على تحريره لدى تأسيسه يعاتبه فيها على تقصيره ويدعوه إلى أن يتخذ له الشدياق قدوة وإماما حتى قال له ما نصه :

«فأين أنت من صاحب الجوائب وشدة حزمه وصدق عزمه، ومقاصده الحسنة وسياسته المرضية ومعرفته بمواقع الأمور ؟ ألم تر نفسه الأبية، وهمّته العلية كيف لم يقعد بها التقدم في السن، ولا نحافة البدن، والانفراد عن المعين عن الوفاء بما التزم للناس، وإن اعتذر إليهم مرة في شيء فَبِنيَّةِ أن لا يعود :

وأراه يفعل ما يقول وبعضهم   مذق اللسان يقول ما لا يفعل.. الخ»[14]

وإن هذه الشهادة لتجلو بقوة مدى إعجاب التونسيين بالشدياق ورغبتهم في الاقتداء به... وأكثر ما جسّم ذلك هو كتاب أقوم المسالك... فأحاديثه عن التمدن الأوروبي وما اتسم به من عدل وحرية، ووصفه لمظاهره المتمثلة في نظام الحكم المعتمد على الشورى النيابية، وفي

---

(13) خير الدين، أقوم المسالك... تحقيق الدكتور منصف الشنوفي، نشر الدار التونسية للنشر سنة 1972 ص : 159 ـ 160. وتحقيق الدكتور معن زيادة. نشر دار الطليعة، بيروت 1984. ص : 162 ـ 163.

(14) الرائد التونسي، السنة الرابعة، العدد 18، 15 جمادى الثانية 1280 : 4.

انتشار التعليم ووسائل الثقافة : من مكتبات عمومية وطباعة وصحافة وغيرها، وفي التقدم العلمي والاختراع، وأن المسيحية ليست سبب ذلك التمدن، وتحليلاته لضعف المسلمين وتراجعهم، ودور الانكشارية والامتيازات الأجنبية في ذلك، ودعوته إياهم إلى النهضة والرقي بضرورة الاعتماد على التنظيمات والاقتباس عن الغرب، والدفاع عن الخلافة العثمانية. كل هذه الموضوعات وغيرها تذكرنا بما كان الشدياق قد بسطه وأذاعه في كتبه وجريدته... كما تذكرنا لغته ومصطلحاته بمصطلحات الشدياق نفسها... ولا غَرْوَ في ذلك فقد كان الشدياق من أكثر النهضويين العرب مصطلحا، وجهوده في هذا المجال يعرفها المشتغلون بهذا العلم، كما يعرف هؤلاء أن تأثيره لم يقتصر على تونس وحدها وإنما عمّ كل الأقطار العربية بدون استثناء.

ولا يملك المرء أمام هذه الحقيقة الا أن يتساءل : لماذا أخفى خير الدين اسم الشدياق وجريدته في كتابه ؟ فهل هو حجاب المعاصرة ؟ أو هو كبرياء الحكم وغرور السلطان ؟ أو هي حزازات رسبت في نفسه وغيره من النخبة التونسية بسبب هجاء مقذع قاله الشدياق في تونس والتونسيين بعد أن أدركه الفشل في الحصول على الوظيفة الموعود بها من قبل خير الدين كما سبق بيانه ؟ أو أن الكتاب لم يكن من تحرير خير الدين نفسه، مع اشتماله على أكثر من دليل على نسبته اليه، فدسّت عليه تلك الفقرة في الكتاب ـ دون أن يتفطن إلى مصدرها ـ ممّن أسهموا في تأليف أقوم المسالك الذي كان كما يرى محمد الفاضل ابن عاشور نتاج مداولات ومناقشات كان يرأسها خير الدين في قصره[15]، ومن أبرز المسهمين فيها : صديقه ومستشاره حسين باشا التونسي الذين تشير المصادر ومنها كتب الشدياق وجوائبه إلى مكانته العلمية والأدبية حتى أنه كان يمثل في تونس (حزب علماء البلاد وفضلائها وأماثلها من المسلمين وغير المسلمين[16]، وصديقهما الشيخ سالم بوحاجب (1827 ـ 1924) وقد يكون هذا الشيخ هو المحرر للكتاب والمنقح لمسوداته بناء على ما فهمه محمد الفاضل ابن عاشور من قولة خير الدين آخر كتابه : «مستعينا في تحريره ببعض أبناء الوطن»[17]، هذا اذا لم يتبادر إلى الذهن ان تدل كلمة (بعض) على أكثر من واحد أسهم في تحريره فنفترض أسماء أخرى مثل حسين التونسي ومحمود قبادو وغيرهما، أو أن هناك أسبابا أخرى دعت إلى إسقاط اسم الشدياق لا يعلمها الا الله وخير الدين، غير أن الباحث لا يملك الا أن يقف أمامها حائرا وان كان لا يملك السكوت عنها ؟...

ثم لماذا سكت الشدياق عن ذلك لما اطلع على الكتاب بعد أن امتدحه كثيرا من خلال فهرسه المنشور بالرائد التونسي، حتى أنه طلب من خير الدين على أعمدة الجوائب أن يرسل اليه كمية منه ليوزعها بالاستانة لأن الطلب عليه كان ملحا ؟ بل إن القارىء للجوائب ليجدها تنشر ما قيل فيه من تقاريظ على امتداد اعداد متوالية، كما وعد الشدياق قراءه بنشر فصول منه وهو ما سيحققه بعد ذلك بنشره ما يتعلق بتاريخ الثورة الفرنسية بداية من العدد 477 في 4

---

(15) ابن عاشور، محمد الفاضل، الحركة الأدبية والفكرية في تونس : 38.

(16) الجوائب العدد 885، 12 أوت 1877.

(17) ابن عاشور، محمد الفاضل، تراجم الاعلام : 225.

جانفي 1871[18]، ولم يقتصر موقفه المعجب بخير الدين على هذا وانما كان لسياسته أحسن داعية : فيعدد اصلاحاته وأعماله. ويتتبع أخباره في الحل والترحال، والصحة والمرض... وينعته بشتى النعوت الدالة على كفاءته السياسية كما سبق في مدحه له شعرا ونثرا، ومثل قوله انه (المشهود له بطول الباع في المسائل السياسية وسعة الاطلاع على الأحوال الادارية والنظامية)[19]. فكل هذا يدل على أنه وجد فيه نموذج السياسي الحازم والمثقف المتنور المؤمن بنهضة أمته ورقيّها، ولكنه مع كل ذلك لم ينعته بالمقدرة الكتابية كما نعت بها صديقه حسين باشا الذي ترك لنا آثارا أدبية تشهد له بذلك... فهل كانت حاجة الشدياق إلى خير الدين هي الكامنة وراء هذا الصمت أو الرضا، بينما لم تمنع كل هذه الخدمات خير الدين ـ لما أصبح صدرا أعظم بالاستانة ـ من تعطيل الجوائب ستة أشهر كاملة كما مرّ، فقلبت له عندئذ ظهر المجن وأخذت تحاربه علانية وسرا مثلما فعلت بنشرها خبرا يفيد بأن خير الدين أراد أن يسلم تونس لفرنسا حتى تشوّه سمعته في نظر المسلمين[20]، ومثل الرسالة السرية التي بعثها سليم الشدياق ابن أحمد فارس إلى مصطفى بن اسماعيل الوزير الأول التونسي بتاريخ 13 جمادى الآخرة 13/1298 ماي 1881 يحذره فيها والباي محمد الصادق من «أن الباب العالي كان عازما على إرسال خير الدين باشا إلى تونس بمأمورية مخصوصة» لو لا تدخل سفير فرنسا بالاستانة والتهديد بمنعه من النزول إلى البر،ثم يذكره بما قامت به تركيا لخلع الخديوي المصري فيقول : «فيلزمكم أن تحترسوا والحالة هذه من دسائس الترك التي لا تخفى على دولتكم من أعمالهم مع اسماعيل باشا الخديوي السابق»[21]، وهو يشير بهذه الحادثة إلى الاشاعة التي راجت في الاستانة حول تعويض الباي محمد الصادق بخير الدين باشا.

ومهما كان الأمر في تعليل سكوت الشدياق فإنه لم يتولّ تقريظ كتاب أقوم المسالك، وقد كان هو أولى بذلك من الكثيرين الذين قرظوه سواء في تونس أو في خارجها[22] نظرا إلى العلاقات الشخصية وحتى النهضوية التي تقرب بين الاثنين، وفي ذلك ما فيه ـ مما لا يَعْزُب عن القارىء الحصيف ـ من خفيّ الدلالة على إحساس الشدياق بالاعتداء على حقوقه، أو القول بالمثل المعروف (بضاعتنا ردّت الينا)، وأنى لمثله أن يقول لوزير كانت له عليه أفضال وقت الشدة، وله خطره ولو كان بعيدا عنه في تونس، إنك قد ضمنت كتابك أفكاري، ونسخت فيه من مقالاتي ما يقوم به الدليل المبين... فالسكوت في مثل هذه المواقف والمداراة أولى من الاشارة أو التلميح.. ولعله قد ترك ذلك للتاريخ، فهو الكفيل وحده بإثبات ان أثره وتأثيره في الكتاب روحا ونصا حقيقة لا جدال فيها...

---

(18) Fontaine, Jean : Le désavoeu chez les écrivains libanais chrétiens de 1825 à 1940 (Thèse de doctorat de troisième cycle - Faculté des Lettres de Paris (Sorbonne) 1970 (Polycop) : 58.

(19) الجوائب، عدد 851، 11 أفريل 1877.

(20) Mzali, M.S. et Pignon, Jean; Kherdine Homme d'état. M.T.E. Tunis 1971. p. 284.

(21) idem, p : : 109 _ 110

(22) انظر التقاريظ في أقوم المسالك (نشرة الشنوفي): 231 ـ 290.

وبعد هذا فان أهمية اكتشاف تلك الفقرة تعود في نظري إلى ما يلي :

1 ـ أنه أصبح بامكاننا أن نوقّت تأليف أقوم المسالك بضبط أكثر، فهو على أية حال قد كتب بعد 24 جويلية 1864 تاريخ نشر مقالة الفقرة، والصحيح أن نقول بعد شهر أوت من نفس السنة اذا اعتبرنا مدة وصول الجوائب إلى تونس عبر مرسيليا، وهي تقدر كما قال الشدياق بخمسة عشر يوما.

2 ـ ان هذا الكتاب لا بد أن يفهم في نطاق ثورة علي بن غذاهم التي اندلعت في 8 أفريل 1864 وما عقبها من تعطيل المؤسسات الدستورية والعودة إلى الحكم المطلق بإبطال عهد الأمان في غرة ماي 1864، وجلوس الباي للفصل في النوازل بقرار صادر قبل ذلك أي في 23 أفريل[23]، وهي نفس القضايا التي عالجها الشدياق في مقاله وخير الدين في كتابه. فكأنما كتاب خير الدين ـ حسب ما يبدو ـ هو نتاج طبيعي لهذه الثورة الشعبية، وبالرغم من صفته العثمانية الطاغية عليه فإن القارىء يجد بينه وبين الأوضاع التونسية المختلفة وشائج عديدة. ولعل خير الدين قد أراد بإضفاء العام عليه لا الخاص أن يحقق على الأقل هدفين اثنين هما : أ ـ اتقاء غضب محمد الصادق باي. ب ـ ان مشكلة تونس وأوضاعها هي نفس ما تعاني منه كل البلاد العربية والاسلامية وفي مقدمتها الخلافة العثمانية أمل تلك البلاد في ذلك الوقت، وقد صح تفكير خير الدين هذا، فبعد أن استعفى من منصب الوزارة الأولى بتونس سنة 1877 جدّ السلطان عبد الحميد في توليته صدرا أعظم بالاستانة وما ذلك الا لاعجابه بالأفكار الاصلاحية التي وردت في الكتاب. وما سمعه عنه من حزم وغيره على أمة الاسلام...

3 ـ انه عند دراسة أقوم المسالك لا بد من اعتبار هذا الأثر الشدياقي فيه، لأنه سيمكننا من معرفة مصدر من مصادره سواء في تفكير خير الدين أو في غيره ممن شاركه في التحرير من النخبة التونسية مثل المذكورين حسين باشا التونسي، والشيخ سالم بوحاجب... ومن يدري فقد تثبت الأيام أيضا أن له تأثيرا في غيرهما من التونسيين كما ثبت مثل ذلك في محمد السنوسي (1851 ـ 1900) الكاتب والرحالة[24].

وليس بخاف أن البحث في هذه المسألة يستدعي أولا دراسة شاملة دقيقة معمقة لآثار الشدياق خاصة جريدته الجوائب التي يعسر الآن أن نجد لها مجموعة كاملة في أي قطر عربي، على ما يبدو[25]، كما يجب ثانيا أن نمحص البحث في التراث التونسي المواكب لها، ولو أمكن الوصول إلى هذه الغاية مع ما فيها من جهد البحث والنظر والمقارنة لأمكن اكتشاف مؤثر آخر من المؤثرات العديدة في التفكير التونسي الحديث لفترة النصف الثاني من القرن التاسع عشر. هذه الفترة التي كان فيها كتاب (أقوم المسالك..) خلاصة برنامج الاصلاحيين التونسيين

(23) ابن أبي الضياف، اتحاف أهل الزمان.. 133/5 ـ 134.

(24) بسيس، محمد الصادق، محمد السنوسي : 85 ـ 86 و90، وهنالك أدلة أخرى على تأثر السنوسي بالشدياق ذكرتها في أطروحة عن حياة الشدياق وآثاره ومظاهر تفكيره في النهضة العربية الحديثة (دكتوراه الحلقة الثالثة) نوقشت بالجامعة التونسية في شهر جوان 1986.

(25) الصلح، عماد : أحمد فارس الشدياق : 95.

وبيانهم الخطير المعبر عن رأيهم في النهضة الاسلامية وأركانها، والمجسم لآمالهم السياسية والوطنية، في حين كانت كتب الشدياق وخاصة جريدته ـ قبل صدور ذلك البيان وبعده ـ تمخر البحار، وتجوب الأقطار مرددة آراءه النهضوية، وآمالهم المستقبلية، وحاملة ريادته لكل قرائه في الوطن العربي الكبير، والأمة الاسلامية جمعاء.

وفي النهاية أرى من اللازم أن أقول أنه لا يجب الخلط بين هدف هذه الدراسة وهو البحث عن أحد مصادر أقوم المسالك كما قلت، وبين مكانة خير الدين السياسية والاصلاحية التي لا ينازع فيها أحد، اذ أنه قد «وفق في ذلك إلى حد بعيد» كما قال الاستاذ الشملي في ما كتبه عن هذه الشخصية العظيمة في تاريخ تونس والمسلمين خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر[26].

(26) الشملي منجي، في الثقافة التونسية ط. دار الغرب الاسلامي، بيروت. 1985 ص : 106